

العمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية في شرق أفريقيا مدير معهد العلوم الشرعية (سلطنة عُمان) إلا أن الحدث البارز والأكيد لشرق أفريقيا هو هجرة الأميرين العمانيين من أبناء الجلندى. وقد حدثت هذه الهجرة نتيجة للصراع الدائر بين عُمان الطامحة للاستقلال الذاتي من جهة والدولة الأموية في دمشق الراغبة بإخضاع جميع الأقاليم المحيطة سلطة الدولة من جهة أخرى. وقد حدا ذلك بالحجاج بن يوسف الثقفي عامل بني أمية، وكانت تلك الهجرة عام 82هـ إذ توجهوا إلى أرخبيل «لامو» الكائن حالياً في كينيا على الساحل الأفريقي(1). ساعد على توالي الهجرات إلى الساحل الأفريقي، وقد أكد أحد الباحثين على أن التجار العمانيين ومنذ القرن العاشر للميلاد، وقد ساعدت الهجرات العُمانية إلى أفريقيا على ازدهار المدن الساحلية وأصبحت هناك مدن متناثرة على طول الساحل الأفريقي كمقديشو، كل هذه المدن تجمع بين السكان الأفارقة إضافة إلى العرب الوافدين القادمين بديانتهم ودعاتهم، سواء من الساحل العُماني أم غير ذلك من سواحل البلدان المجاورة كما هو عليه الحال لسكان اليمن وحضرموت. كما يشير ابن بطوطة الرحالة المشهور إلى رحلة بحرية حملته من جزيرة كلوة إلى ظفار، وذلك حوالي عام 731هـ(5). ونعود للمؤرخ المسعودي الذي ركب هذا الخطّ البحري بنفسه من جزيرة مدغشقر إلى عُمان عام 304هـ(6) حيث تحدث عن وجود ربابنة عُمانيين. ويبدو أن تجارةً نشطت بين الساحل الأفريقي وعُمان، وأن عُمان كانت معبراً لتصدير عاج الفيلة إلى الهند والصين(8). إن اتصال العمانيين المبكر مع الساحل الأفريقي قد ساعد على وجود هجرة منتظمة للقبائل العُمانية، وهو الأمر الذي ساعد على وجود مجتمعات عربية على طول الساحل الأفريقي. ويتحدث المؤرخون عن استيطان قبيلة الحرث في مقديشو بين عامي 291 و301هـ حيث أسست هذه القبيلة دولة خاصة بها استمرت في حكمها حتى قدوم البرتغاليين(9). وقد أشارت كتب التاريخ إلى هجرة لقبيلة عُمانية أخرى هي قبيلة النباهنة في أوائل القرن السابع الهجري إذ أقامت تلك القبيلة سلطنة إسلامية لها في «بات» ظلت موجودة حتى عام 1861م(11). ويبدو أن قبيلة النباهنة في «بات» في أرخبيل «لامو» (كينيا حالياً) قد جاءت متزامنة مع حكم هذه الأسرة لعُمان خلال الفترة من عام 500هـ وحتى قيام الدولة اليعاربة أي عام 1024هـ. ويشير بعض المؤرخين إلى أن قدوم الأمير سليمان بن سليمان بن مظفر النبهاني إلى «بات»، هو بداية هذه الدولة النبهانية عام 599هـ حيث تزوج هذا الأمير بأميرة سواحلية هي ابنة إسحاق حاكم وقتذاك، وعلى أثر هذا الزواج نقل الأمير النبهاني بلاطه من عُمان إلى الساحل الأفريقي الشرقي(12). إن هذا النزوح والاندماج العربي قد تكرر في أكثر من مدينة على طول الساحل الأفريقي كما هو الحال عليه في ممباسا حيث استوطنتها عائلات من قبيلة المناذرة العُمانية وكذلك قبيلة المزاريع حيث تسلسلت الريادة والحاكمية في بعض هذه الأسر إلى عدد من السلاطين والزعماء، فقد وصل عدد الحاكمين من أسرة بني نهبان إلى اثنين وثلاثين سلطاناً حتى عام 911هـ أي مع وقت قدوم البرتغاليين(13). وقد نقل العرب العمانيون عقيدتهم الإسلامية إلى السواحل الأفريقية كما نقلوا معهم عاداتهم ولغتهم العربية محدثة اندماجا فريداً مع لغة السكان الأصليين، فنتج عنها لغة جديدة عرفت بالسواحلية تتغلغل فيها المفردات العربية إلى ما يقارب 45% ولكن هذه العربية هي بطابع عُماني ملحوظ حتى وقتنا هذا، أولاً: مساندة العمانيين لإخوانهم الأفارقة في إنهاء الوجود البرتغالي: وذلك أن الساحل الأفريقي قد تعرض لاحتلال برتغالي تام كما جرى لعُمان والسواحل العربية والإسلامية الأخرى حيث قاوم العمانيون هذا العدوان على أراضيهم مدة قاربت المائة والخمسين عاماً. وقد تمكن العمانيون في ظل الدولة اليعربية من دحر الدخلاء البرتغاليين، وتُعدُّ الفترة من عام 1498م وحتى عام 1730م فترة الصراع بين البرتغاليين من جانب، وذلك منذ لحظة وصول «فاسكو دي جاما» إلى «مُمبَاسَا» عام 1498م(14). وعندما حلَّ الاستعمار البرتغالي في شرق أفريقيا استنجد الأفارقة بإخوانهم العمانيين للقضاء على هذا الاستعمار، وقد كلف تحرير ممباسا العمانيين جهداً كبيراً حتى يمكن القول: إنه من الإنجازات البارزة التي تسجل لتاريخ الدولة اليعربية(16). لقد استطاع العمانيون الاستيلاء على قلعة يسوع بعد حصار دام ثلاثة وثلاثين شهراً أي من 13 مارس 1696 وحتى 14 ديسمبر 1698م، وقد جاءت استجابة الحاكم العُماني الإمام سلطان يوسف بن سيف اليعربي لنداء الاستغاثة الموجه له من سكان ممباسا فأرسل قوة بحرية مكونة من سبع سفن حربية، لقد كان الحكم البرتغالي للساحل الأفريقي فترة مظلمة من الاستعباد والتسلط وقد كانت سياسة فتح البلاد لديهم التدمير بلا رحمة، اعتماداً على مدافعهم البالغة الأهمية، ثانياً: نشوء السلطنة العُمانية في زنجبار على الساحل الأفريقي: إنَّ الحدث الذي ذكرناه آنفاً قد مهد الطريق لنشوء الدولة العُمانية، فبعد أن تم تطهير الساحل العُماني من الوجود البرتغالي زادت الهجرة العُمانية من جديد إلى الساحل الأفريقي، واتسع مدى الاتصال البحري تجارياً واجتماعياً بين الجانبين حتى اقتضت الحاجة نشوء دولة عُمانية على الساحل الأفريقي كانت مركزاً للإشعاع الحضاري والإسلامي والعربي واستمر لعصور طويلة. ويعد حكم السيد سعيد بن سلطان البوسعيدي 1804_1856م تحولاً بارزاً في سماء العلاقات العُمانية الأفريقية، وبدءاً من عام 1832م أصبحت زنجبار عاصمة

الإمبراطورية العُمانية، وقد أدى ذلك إلى انتقال طائفة من العُمانيين إلى شرق أفريقيا(21). كما امتدت سلطة السيد سعيد إلى جميع الجزر الأفريقية الشرقية وكان نفوذه يمتد شمالاً وجنوباً حتى قبل: إنه إذا ضرب السيد سعيد طبله في زنجبار، هذا النفوذ في الشرق الأفريقي أدى بدوره إلى قيام دولة إسلامية عربية لها تاريخها وتراثها فطبعَت الساحل الأفريقي بطابعها الإسلامي- العربي المتميز وهو ما سهل انتشار الإسلام كدين جديد بين السكان المحليين، سواء في الجزر أم على امتداد المدن الساحلية. فقد ارتبطت بمعاهدات واتفاقات مع الدول الكبرى ذات النفوذ آنذاك، كما أوفد السيد سعيد سفيره أحمد بن نُعمان الكعبي إلى أمريكا سنة 1840 م ليصل إلى نيويورك على السفينة سلطنة(25). فقد صدرت أوامر من السيد سعيد بعد التعرض للمذاهب الدينية وأن كل مذهب يتبع حكم مذهبه(26). وقد أصبحت عاصمة الدولة العُمانية على الساحل الأفريقي مركز إشعاع للدين الإسلامي في كل ما جاورها على البر الأفريقي إذ أشرق نور الإسلام لأول مرة في المناطق الداخلية من البر الأفريقي، العُمانيون ونشر الإسلام والثقافة العربية: ليس خافياً على أحد الأثر الذي أحدثه العُمانيون بنشر الإسلام على الساحل الأفريقي وكيف كان ذلك بفعل الاستيطان السكاني واندماج العُمانيين مع السكان الأصليين فكان أن نقلوا ثقافتهم ولغتهم، إضافة إلى عقيدتهم الإسلامية إلى غيرهم من الأفارقة. إن العرب العُمانيين هم أوّل من اكتشف أفريقيا وجاس خلالها إلى حوض نهر الكونغو، وقد شهد لنتائج تحول الساحل الأفريقي إلى الإسلام ابن بطوطة عندما زار هذا الساحل عام 731هـ، كما أثار ذلك دهشة «فاسكو دي جاما» عندما وفد على هذا الساحل الأفريقي عام 904هـ فوجد أهلها قد تطبعوا بطابع العرب من العُمانيين في عاداتهم ولباسهم،